الموضوع:

كليلة ودمنة قصص حيوانيّ رمزيّ ممتع بظاهره ذاك ومُفيد بحكمته ونقده السّيّاسي وغايته تقويم السّلوك السّياسيّ للراعي وللرّعيّة معا.

حلّل هذا القول مستندا إلى شواهد دقيقة من كليلة ودمنة .

TADRiS.TN
في دارك... إتهنى على قراية إصغارك
www.Tadris.TN 55.635.666 26.222.159

لقد مثّل ظهور كتاب كليلة ودمنة لإبن المقفّع في القرن الثاني للهجرة حدثا أدبيّا وفنيّا وفكريّا مائزا استثنائيّا لأنّه أدخل الأدب العربي والفكر الإسلامي في فلك جديد وفضاء من الإبداع غير مألوف سواء بطابع الخطاب فيه أو بتصريفه الكلام على ألسنة البهائم والطير والحيوانات ولكنّه تميّز أيضا بخوضه في مسائل بكر ذات حساسيّة تتصل بعلاقة الحكمة بالسلطان والراعي برعيته وهذا ما جعل بعض الدارسين يذهب إلى اعتبار هذا الكتاب ممتعا بظاهر قصصه الحيواني الرّمزي ومفيدا بنقده السياسي راميا إلى غاية رفيعة هي تقويم السّلوك السّياسي للراعي والرعيّة.

فكيف تجلى الإمتاع في القصص الحيواني الرّمزي؟ وما هي مظاهر النّقد السّياسي المفيدة في الأثر؟ وكيف تجلّى الهدف بتقويم السّلوك السّياسي للراعي والرعيّة؟

أريد لهذا الكتاب منذ منشئه الهنديّ أن يكون في قالب قصصي ولا تكون القصّة قصّة إلاّ بحضور أركانها ومقوّماتها وسارد يسرد حكاية تتعلّق بشخصيات يقول: "ثمّ إنّ دمنة ترك الدّخول أيّاما كثيرةً ثمّ اتاه على خلوة منه" يؤطّر الأحداث ويُقدّم الشّخصيات: دمنة، الأسد، الثور... وكذلك ينطقها بما يطوّر الأحداث مثل الحوار: " قال دمنة: أخبرني الأمين الصدوق عندي أنّ شتربة خلا برؤوس جندك وقال لهم..."

كما يحاور دمنة الأسد يحاور الثّور قال دمنة: "حدّثني الخبير الصّدوق الّذي لا مريّة في قوله أنّ الأسد قال لبعض أصحابه وجلسائه قد أعجبني سمن الثّور وليس لي إلى حياته حاجة فأنا آكُله ومُطعّم أصحابي من لحمه"

في دارك... إتهنى على قراية إصغارك
www.Tadris.TN 55.635.666 26.222.159

فالسّرد والحوار وكذلك الوصف هي أنواع الخطاب الّتي مع الشّخصيات و الأطر الزّمانيّة والمكانيّة: الغابة ومجلس الأسد، مريض الثور، .... تجعلنا إزاء قصّة ولتتطوّر الأحداث وليكون التّشويق ولتكون متانة الحبكة لا بدّ من حسن التّوليف بين هذه العناصر وحبكها حتى تتطوّر الأحداث ويكون التّأزم و التحول من الهدوء الى الاضطراب و ذروة التأزم وتكون مأساة دمنة أو مصيره المحتوم بعدما حيك من الدسائس وما صُنع من الفخاخ للأسد والثّور ودمنة أراد كشخصيّة داهية ذات خبث ودهاء ومكر أن تكون الجريمة كاملة بلا أثر بحضوره في ارتكابها وذلك بالإمساك بكلّ خيوط اللّعبة، واللّعبة ههنا ليست بالفكر فقط والذكاء وإنّما بإتقان البيان والتّعبير والوصف فدمنة لم يكتف بتحريش الأسد على الثّور والثّور على الأسد وإنّما تجاوز ذلك لتنطلي حيلته على كليهما إلى رسم صورة كلّ منهما مستعدا للصراع ومتحفّزا للانقضاض على الآخر لقطع طريق الرجعى على كليهما. قال دمنة للأسد: "إنّك ترى هيأته متغيّرة وترى أوصاله ترعد وتراه ملتفتا يمينا وشمالا وتراه يصوّب قرنيه فعل الّذي همّ بالنّطاح والقتال" فالصورة الّتي رسمها دمنة لحالة الثّور عند ملاقاة الأسد حبك معها صورة أخرى للثّور يرى عليها الأسد بطريقة لا يشك للحظة أنّه عامل على قتله قال دمنة: "سترى الأسد عندما تدخل عليه مقعيا على ذنبه رافعا صدره إليك مادا بصره نحوك قد صرّ أذنيه وفغر فاه واستوى للوثبة" وبهذه الصّورة يكون دمنة قد أحكم التدرّج في حبك الحيلة ليكون دفع الأحداث نحو التّأزم والصراع الدموي الّذي سيكون الثّور ضحية له لأنّ الأسد غلاّب له. فالأحداث المسرودة والحيل المحبوكة والتّدرج من سرد ووصف وحوار لا يمكن أن تكون فواعله من الحيوانات وخاصة عندما يدخل دائرة الحجاج ونرى الشخصيات تُحاج مُحاولة الإيقاع ببعضها بعض أو الهروب

في دارك... إتهنى على قراية إصغارك
www.Tadris.TN 55.635.666 26.222.159

من أحابيل دمنة عبثا لأنّه أحكم نسج الخطاب ومكّن للعداوة في نفسي الأسد والثّور وبهذا لا يُمكن أن تكون هذه الشّخصيات حيوانيّة بل هي رموز شفافة لطائفة من البشر في كواليس السّلطة. فالأسد هو ذلك الملك الحاكم بأمره ودمنة هو الفرد من الحاشية يسعى إلى منزلة متميّزة عند الأسد لا يُنافسه فيها أحد مهما كانت الوسيلة وإن كانت سفكّ الدّماء وشتربة هو الفرد من الحاشية الّذي لا يُحسن الإحتيال وقرابته من الأسد تجعله يسفك دمه بهذا يكون الرّمز الشفاف للقصص الحيوانيّ لنجد أنفسنا قد خرجنا من عالم الحيوان لنلج عالم الإنسان يكفي أن تعوّض كلّ شخصيّة بما يُقابلها في العالم الإنسانيّ وفي مجال السّلطة خاصة.

فالكتاب صرّف الأقوال على ألسنة البهائم والطّير وجعلها تمسك بناصية الخطاب للإمتاع ولكنّ نزع رداء الرّموز الشفافة يجعلنا إزاء حكمة ونقد سياسيّ لا ذع فالكاتب رسم أعلى هرم السّلطة والملك أو السّلطان تتجاوزه الأحداث وتُحاك الدسائس في بلاطه ويكون أُلعوبة بين يدي فرد من الحاشية هو دمنة بهاجس الدّفاع عن سلطته مما ساقه إلى سفك دمّ الثّور، فدمنة يتآمر على الجميع ومن جعله كذلك هو السلطان الخاضع للغريزة الحريص على الحفاظ على سلطته فالأسد يسمع صوتا يُخيفه فيُلازم مجلسه وهذا ما يُثير حب اطلاع دمنة فيسعى إلى تبديد مخاوفه فيحصل على منزلة متميّزة عنده وعندما يفقد هذه المنزلة بالتّقارب بين الأسد والثّور يكون مستعدا لدفع كلّ طاقته ويُسفك الدّماء واشعال الفتن لإستعادة منزلته القديمة فنحن إذن إزاء نقد سياسي لاذع للحكم الفردي الإستبدادي الّذي يخشى على السّلطة وضياعها ويحاط بالوصوليين والمتسلقين وأصحاب المؤامرات لتثبيت حكمه لتكون الغاية استمرار المصلحة الفردية واقدام الأسد على قتل الثّور بمجرد الشبّهة هو نقد للنظام الإستبدادي فكلّ من يشتبه في تآمره يُقتل بلا محاكمة والوشايات والسعايات هي الأساس والمعتمد لإثبات التّهم بينما يقوم دمنة بنقد هذا الأمر

في دارك... إتهنى على قراية إصغارك
www.Tadris.TN 55.635.666 26.222.159

عندما وصل إليه يقول: " ما حدث من أمر حتّى وجب به قتلي؟" فدمنة يستنكر قتله دون بيّنة أو محاكمة رغم أنّه تسبّب في قتل غيره دون بيّنة أو محاكمة. وفي ذلك نقد لغياب العدل وبيان الحكمة من إقام المحاكمة العادلة حيث يُدافع كلّ طرف بالحجّة والبيّنة والشهود عن موقفه ولا يُؤخذ بالشبهة والشّك والسعاية الّتي كثيرا ما تكون أخبارها مكشوفة.

ولكنّ الحكمة لا تتعلّق بالعلاقة بين الراعي والرعية فقط وإنّما تتعلّق أيضا بالعلاقة بين أفراد الرعية أنفسهم لأنّ فساد الأوضاع في مرتبة هو الّذي سيفسد الأوضاع في المراتب الأخرى.

ولم يكتف ابن المقفّع بنقد السّلوك السياسيّ للراعي والرعية وإنّما تجاوز ذلك إلى تقويم السّلوك السياسي لهما وإذا كانت علاقة الأسد بالثّور في حضور دمنة هي من الواقع المُراد هدمه وخلخلته وزلزلته فإنّ علاقة الحمامة المطوّقة ببقيّة الحمامات هي البنّاءة للعلاقات الجديدة والصورة المنشودة للعلاقات بين الحاكم والرعية فصاحب السّلطة لا يجب أن يكون مهووسا بالحفاظ على سلطته حريصا على خلاصه الفرديّ فقط كما شأن الأسد وإنّما مقرا بقيمة التّعاون بين الحاكم والمحكوم لتحقيق المصلحة للجميع وظفرهم بالنّجاة جميعا وهذا النّموذج تجسّد في باب الحمامة المطوّقة كانت كلّ حمامة بعد الوُقوع في شبكة الصياد تُحاول تحقيق الخلاص الفرديّ والنّجاة لنفسها قال السارد: "فجعلت كلّ حمامة تتلجلج في حبائلها وتلتمس الخلاص لنفسها" ولكنّ الحمامة المطوّقة زعيمة الحمام وجّهتهم إلى السّلوك الأمثل المحقّق للخلاص للجميع راعيا ورعية بأن يتحليّن جميعا بالتّعاون ليكون تحقيق المصلحة الجماعيّة والنّجاة الجماعيّة قالت المطوّقة: "لا تخاذلن في المعالجة ولا تكن

في دارك... إتهنى على قراية إصغارك
www.Tadris.TN 55.635.666 26.222.159

نفس احداكنّ أهم إليها من نفس صاحباتها ولكن نتعاون جميعا وتُقلع الشّبكة فينجو بعضنا ببعض" فالحمامة المطوّقة قدمت حكمة تحتذي ومنهجا قويما في التّعاطي مع الأحداث والمستجدات والقضايا الشائكة وهي عدم التّفكير في الخلاص الفرديّ وعدم الخضوع للأنانيّة والبحث عن النّجاة الفرديّة ودعت إلى أن يكون التّعاون سبيلا إلى النّجاة الجماعيّة فيكون البعض وسيلة النّجاة للبعض الآخر وليس سببا في إغراق الجميع في وحل الفرديّة والأنانيّة اللتين لا تحققان نجاة للفرد ولا للمجموعة وقد قدّم الكاتب نموذجا للزعيم والسّائس والحاكم نقيضا للأسد هو ذلك الّذي يؤثر رعيته على نفسه فينجو بها وتنجو به قالت له المطوّقة: " ابدأ بقطع عقد سائر الحمام وبعد ذلك أقبل على عقدي" وهذا أوج التّقويم لسلوك السّائس أو صاحب السّلطة في علاقته برعيته للخروج من دوائر الإستبداد الدمويّة الفردية المقيتة إلى دائرة التّعاون بين صاحب السّلطة ورعيته والتّحلي بالإيثار ونبذ الأنانيّة ممّا يحقق نجاة الجميع وصلاح واقعها.

هكذا يتبين لنا أن كتاب كليلة ودمنة قد احتضن من الإبداع القصصي برموزه الحيوانية الشفافة أروع الصور وبها استطاع الكاتب أن ينقد السلوك السياسي الرديء للأنظمة الاستبداديّة في محاولة منه بالظاهر الممتع والباطن المفيد تصحيح الممارسة السياسية لتكون قويمة بناءة للأفضل مصلحتا ومنفعتا وهدّامة للأنانيّة المقيتة الّتي تهدد مصلحة الجميع أفرادا أو جماعات حاكما ومحكوما فإلى أي مدى كان لهذه الثنائيّة الممتعة المفيدة تأثير في الأدب العربي القصصي أو في الآداب العالميّة؟

في دارك... إتهنى على قراية إصغارك
www.Tadris.TN 55.635.666 26.222.159